عَوْلَمَةُ اللغة العربية والثقافة الإسلامية

د. طه على خليفة أحمد

توطئة البحث :

الحمدُ لله رب العالمين ، صلاة وسلامًا على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وبعد ،،،

تزخرُ مكتباتنا العربية والإسلامية بالعديد من الدراسات والأبحاث والمؤلفات التي تبحث في مفهوم العولمة، لدرجة يشعر فيها الباحث نتيجة انتشار هذا المفهوم أنه في بحر مضطرب الأمواج لا شاطئ له، وعلى الرغم من ذلك فإن الدراسات التي تعالجه وأشكاله وتأثيراته المختلفة، لا تزال قليلة، ولا نزال فى حاجة ماسة إلى المزيد من الدراسات والأبحاث، وإلى المزيد من الجهد والعمل الجاد المتواصل؛ لعولمة لغتنا العربية وثقلفتنا الإسلامية، لا سيما أن الإسلام هو أول من جاء بأسس العولمة الصحيحة، وبلّغ لها، ودعا إليها، إذ قال الله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(١)، وما جاء الإسلام إلا باللغة العربية.

وحيث إن كلمة: «مَن» في الآية الكريمة من كلمات العموم، فالخطاب موجه إلى كل أهل الأرض، وجميع الناس، ولا يمكن أن يكون الخطاب من الله الحكيم موجها إلى كل أهل الأرض، إلا إذا كان الإسلام الذي أنزله الله تعالى في كتابه، وبعث به رسوله الحبيب محمد -صلى الله عليه وسلم - جامعاً لكل أسس العولمة الصحيحة، وشاملاً لجميع القوانين الصالحة لإدارة العالم كله فى أى زمان، وعلى نهج عادل وقويم، موفرًا لكل أهل العالم - فردًا وجماعة - الرغد والدعة، والأمن والاستقرار، والسعادة والعيش الهنيء، والإسلام بلغته العربية فعلاً هو كذلك، وإلا لما دعا الله تعالى . وهو الحكيم المطلق . العالم كله إليه، وحذّر من التديّن بغيره من الأديان والمبادئ الأخرى، ويؤيد ذلك قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٢)، فالرسول الحبيب -صلى الله عليه وسلم- رسول إلى الناس كافة، وليس لبعضهم دون بعض، ورحمة مهداة للعالمين، وليس لعالم دون آخر .

والدراسة الحالية محاولة لإبراز ضرورة عولمة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وأهمية العمل على ذلك، مع ذكر التحديات التى تواجه تلك العولمة، ثم الخطوات الجادة نحو عولمة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، والكشف عن الآثار الإيجابية لذلك، وتنبع أهمية هذه الدراسة في إسهامها في زيادة وعي الرجل العربى المسلم بمفهوم عولمة لغته وثقافته، وكيفية ذلك، فقناعته بعولمة لغته العربية، وثقافته الإسلامية تجعله أكثر عملاً ووعيًا في التعامل مع آثار هذا المفهوم في حياته .

كما تهدف هذه الدراسة أيضا إلى بيان مفهوم العولمة، والثقافة، والعولمة الثقافية ، والمفاهيم الدالة على العولمة الثقافية، ومقومات وجودها، وكذلك معرفة الآثار الإيجابية لعولمة اللغة العربية، وكيفية التعامل معها – وكل ذلك بإيجاز شديد حسب ما تتطلبه طبيعة البحث -. هذا وقد تعددت المفاهيم المطروحة حول العولمة، وهذا التعدد دليل على أنها تنطلق من خلفيات ثقافية مختلفة، فهى مفهوم أو ظاهرة ذات أبعاد عديدة، سياسية، وثقافية، واجتماعية تؤثر في حياة الأفراد والجماعات، وتتضمن قيمًا، واتجاهات، وأفكارًا على الدول والشعوب أن تتبناها، وتتكيف معها، كما أنها مصطلح ينتهي بتفريغ المواطن من وطنيته، وانتماءاته، وبعبارة أخرى تضاؤل الاعتبارات المحلية من فكرية، واقتصادية، وسياسية،واجتماعية، في تشكيل حياة الناس لصالح انعكاسات عالمية عامة(٣).

والحق أن مصطلحا لم يثر الحيرة والقلق مثلما فعل" مصطلح

العولمة"،فقد ظهر هذا المصطلح مؤخرا بعد بروز ثورة المعلومات بسرعة، وهو لفظ مشحون بعدد من المعاني، "قد يعني كل شيء ولا يعني شيئا بعينه" (٤)، ولقد تباينت تعريفاته من قبل الباحثين والمهتمين-كما ذكرنا آنفا- ، وذلك حسب توجهاتهم الفكرية، والعقدية، وثقافاتهم المختلفة، وتعدد الزوايا المتعددة التي ينظر منها الباحثون والمفكرون ، ويمكن القول أن للعولمة معنى عاما شاملا، يتضمن الانتقال من المجال الوطني، أو الإقليمي إلى المجال العالمي، أو الكوني، وليس الدولي، لأن الكلمة الثانية تعني وجود الحدود، وخطوط الفصل، بينما كلمة الكوني أو العالمي تتجاوز الحدود (٥) .

ولعل أبسط تعريف للعولمة – من وجهة نظر البحث- ما عرضه جورج لودنج بأنها : " العملية التى من خلالها تصبح شعوب العالم متصلة ببعضها فى كل أوجه حياتها، ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا وتقانيًا وبيئيًا " (٦)، والبحث يؤكد من خلال تعريفات العولمة أنها تشمل أبعادا عديدة، وليس كما يدعي بعض المتحمسين لها أنها تتعلق بالاقتصاد فقط .

ولكن بعد هذا العرض السريع لمفهوم العولمة ، هل نهدف بعولمة لغتنا العربية إلى الهيمنة المعروفة ؟ .

إن عولمة لغتنا وثقافتنا تختلف عن الهيمنة، فالعولمة والعالمية صفة تميزت بها رسالة الإسلام، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا للناس كافة بشيرًا ونذيرًا﴾(٧) ، وذلك يعنى الانفتاح على العالم، والثقافات الأخرى، مع الاحتفاظ بالخصوصية، أما الهيمنة فهي نفي الآخر، واختراقه ثقافيا واقتصاديا، ومحاولة فرض ثقافة واحدة لدولة تملك القوة المادية و تريد السيطرة على العالم(٨) ، فنشر الفكر والثقافة الخاصة بلغتنا العربية يعد أمرًا راجحًا، ومبررًا نابعًا من الإيمان بأحقية هذه الحضارة العربية، وأفضليتها؛ لذا نسعى إلى تعميمها والدعوة إليها بإبراز إيجابيتها لا بفرضها على الأمم الأخرى بتمزيق حضارتهم، وإلغاء هويتهم، فعولمة الدين الإسلامى واللغة العربية تقوم على أساس الاعتراف بالآخر في هويته، وثقافته، وحضارته ، وتقوم على أساس تكريم بني آدم جميعا، فقد قال تعالى: ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ (٩) ، في حين أن الهيمنة تفرض قوتها السياسية، والاقتصادية، والثقافية، ولا تعني معاملة الأخ لأخيه الإنسان كما في الإسلام، ولا معاملة الأحرار الشرفاء، بل معاملة السيد للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين(١٠) ، وهذا ما يتناقض مع طبيعة الإسلام، ومع خصائص الإنسان كمفكر ومبدع .

لذا فعولمة لغتنا العربية، وثقافتنا الإسلامية لا تهدف إلى الهيمنة بل إلى وضع شعوب العالم في قوالب فكرية، تنبع أساسا من ديننا الحنيف، وهذا لا يعنى هيمنتها، وقيامها بتهميش الثقافات الأخرى الحية في العالم، – كما ذكرنا آنفا- فهي لاتهدف إلى إبعاد الناس عن واقعهم الاجتماعي، واختراق الهوية الثقافية للأمم والشعوب، إنما تهدف إلى ترسيخ قيم ثقافتنا العربية الإسلامية المتحضرة، والتى ينجو بها الإنسان، وتعلو آدميته(١١) ، فوجود لغة ونمط ثقافي عالمي لا يعني القضاء على الأنماط الثقافية الأخرى، بل ربما يؤدي إلى مزيد من تأكيدها(١٢) ، وربما يؤدى إلى تقارب يحدث بين الثقافات المختلفة لدرجة ذوبان الفوارق الحضارية بينها، وصهرها جميعها في بوتقة ثقافية واحدة ذات خصائص مشتركة(١٣) ، وهذا ما تهدف إليه عولمة لغتنا العربية .

أما الثقافة فثمة من يعرفها بأنها : " مجموعة العلوم، والفنون، والمعارف النظرية التي تؤلف الفكر الشامل للإنسان، فتكسبه أسباب الرقي، والتقدم، والوعي، فهي النسيج الكلي من الأفكار والمعتقدات، والعادات، والتقاليد، والاتجاهات، والقيم، وأنماط التفكير، والعمل، والسلوك وما ينبني عليها من تجديدات، أو ابتكار، أو وسائل في حياة الناس" (١٤) .

المبحث الأول : الضرورة الشرعية لعولمة اللغة العربية والثقافة الإسلامية

إن الواجب الشرعي يحتم علينا نشر ثقافتنا، وإحداث عولمة إسلامية، وهذا لن يتأتّى كاملا إلا بنشر لغتنا العربية في العالم؛ فنحن نمتلك لغة عالمية وثقافة قوية وعميقة، تؤهلنا للمشاركة في عولمتها من دون أي خوف أو قلق، وقد خلق الله تعالى الإنسان على فطرة اجتماعية واحدة، فهو أبداً يهوى العولمة ويسعى للتعولم، وإليه أشار